

تجديد الخليقة*

الميتروبوليت ييروثيوس فلاخوس

تعلم الكنيسة تعليماً واضحاً عن أن **الخليقة** هي عمل الله، وأنها أفسدت بسقوط الإنسان، وأنها سوف تتحرر أيضاً من هذا الفساد. إننا نتكلم في تقليد الكنيسة عن الخليقة أكثر مما نتكلم عن الطبيعة. فكلمة طبيعة تشير إلى شيء طبيعي، على حين أن كلمة خليقة تدل على ما هو مخلوق، أي إنه صنع لم يكن موجوداً من قبل. بالتالي، لا يتكلم المرء في الكنيسة عما هو طبيعي وما هو وراء الطبيعة، بل عما هو مخلوق وما هو غير مخلوق. غير المخلوق ليس له بداية ولا نهاية، وغير المخلوق موجود بذاته، على حين أن المخلوق له بداية خليقة ولكن الله أراد له ألا يكون له نهاية حتى لو كان ينبغي عليه أن ينتهي في وقت ما بالطبيعة.

الفرق بين المخلوق وغير المخلوق كبير، فهما لا يتشابهان. فالوحيد الذي يشترك فيه المخلوق وغير المخلوق هو المسيح الله الإنسان، الذي في شخصه اتحد الله بالطبيعة البشرية، أي غير المخلوق بالمخلوق. وبحسب القديس مكسيموس المعترف، يكون الكيان اللانهائي الكلي القدرة وخالق كل الأشياء هو وحده البسيط، الفريد، غير الموصوف، **السلامي**. لا يوجد شيء مركب في الكيان غير المخلوق أي في الله. وعلى العكس من ذلك، فإن الطبيعة المخلوقة مركبة، وتتكون من جوهر ومظهر، وهي تحتاج للعناية الإلهية¹. لقد صنع الله كل الخليقة وهو يحافظ عليها بعنايته غير المخلوقة. وقمة عناية الله "هي خلاص كل الخليقة".

من المؤكد أنه لا ينبغي أن ننسى أن تعبير خليقة يشير إلى الملائكة والشياطين والجنس البشري والخليقة غير العاقلة. إنه تعبير يطلق على كل الخليقة، العاقلة وغير العاقلة. إننا نعلم أن الله خلق العاقل أولاً، ثم العالم الحسي والمادي، ثم بعد ذلك الإنسان الذي هو اتحاد العالم العاقل والعالم الحسي. الإنسان هو إذاً خلاصة كل الخليقة، فهو الكون الصغير داخل الكون الكبير، ولكي نعبر عن ذلك بصورة أفضل من منظور القيم نقول أنه الكون الكبير داخل الكون الصغير.

لكننا عندما نتكلم في هذه النقطة عن الخليقة وتجديدها فإننا نعني بالأحرى الخليقة المادية وغير العاقلة التي سوف تتجدد في الدهر الآتي بعناية ونعمة الله. لأن هذا الشأن يهمنا في دراستنا. يتكلم الكتاب المقدس عن سقوط الخليقة، ولكنه يتكلم أيضاً عن تحررها من الفساد. يوجد نص كلاسيكي في رسالة بولس الرسول لأهل رومية سوف نورده كاملاً لأنه مميز جداً وسوف يساعد في البلورة القادمة للموضوع.

¹ - Maximus the Confessor, 4th century on love, 78, Philok. 9, p. 101.

² - Thalassius, First century, 61, Philok. 2, p. 310.

” لَأَنَّ انْتِظَارَ الْخَلِيقَةِ يَتَوَقَّعُ اسْتِعْلَانَ أَبْنَاءِ اللَّهِ. إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ - لَيْسَ طَوْعًا، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أُخْضِعَهَا - عَلَى الرَّجَاءِ. لَأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضًا سَتَعْتَقُ مِنْ عُبودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلَادِ اللَّهِ. فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَتَنُحَّضُ وَمَعَا إِلَى الْآنِ“ (رو: ٨٩-٩٢).

في هذا النص العديد من النقاط المهمة. أولاً، أن عالم الحواس، أي الخليقة المادية، يسمى مخلوقاً وليس طبيعياً، لأنه مرتبط بوجود خالق وبالتالي هو ليس خالداً وأبدياً كما يظن بعض الفلاسفة. ثانياً، أن الخليقة أخضعت للفساد ليس بإرادتها الخاصة طالما أن الخليقة ليس لها إرادة أو حرية، ولكن بسبب سقوط الإنسان. فلقد جرف الإنسان كل الخليقة إلى الفساد. ثالثاً، أن الخليقة تئن وتتمخض مع الإنسان وتوقع وترجو التحرر. رابعاً، يشير انتظار الخليقة إلى استعلان أبناء الله. فبمقدار ما كان الإنسان هو سبب سقوطها، بمقدار ما يأتي تجديدها من الإنسان. ومن الطبيعي أننا عند الكلام عن الإنسان نعني الله الإنسان الذي هو ابن الله. خامساً، يوجد تأكيد على أن كل الخليقة سوف تعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أبناء الله. هذا يعني أن كل الخليقة سوف تتمتع بالبركات التي سوف تتأتى عندما يصل الإنسان للشركة في مجد الله.

يظهر هذا النص مفهوم وتعليم الكنيسة عما يسمى المشكلة البيئية وتجديد الخليقة. فسبب السقوط هو عصيان الإنسان وعدم خضوعه، وسبب التجديد هو ابن الله بالنعمة، أي الإنسان المتحد بالله. فهو سوف يحررها ويجدها. وفي الواقع، سوف تجدد نعمة الله الخليقة العاقلة أيضاً بواسطة الإنسان. ومن ينظر لتجديد الخليقة بعيداً عن الإنسان المتحد بالله فإنه يتعب باطلاً.

الشخص المتحد بالله هو شخص جديد، أي خليقة جديدة، وهذا هو السبب الذي يجعله مهياً للمجد. يقول بولس الرسول: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ" (٢كورنثوس ٥: ١٧). ويشير بطرس الرسول إلى نهاية العالم دون أن يتكلم عن تدمير نهائي كامل ولكنه يتكلم عن تجديد وتحويل قائلاً: "وَلَكِنَّا بِحَسَبِ وَعْدِهِ نَنْتَظِرُ سَمَاوَاتٍ جَدِيدَةً، وَأَرْضًا جَدِيدَةً، يَسْكُنُ فِيهَا الْبَرُّ" (٢بطرس ٣: ١٣). إننا نرى هنا بوضوح الحديث عن تجديد الخليقة وليس عن الخراب والتدمير. وسوف نتناول هذا الموضوع بصورة أكثر تحليلاً بعد قليل عندما نتناول تعاليم آباء الكنيسة.

عند دراسة النصوص الأبائية، يجب أن نفحص كيف سقطت الخليقة، ومما يتكون تجديدها كما يحلله آباء الكنيسة القديسون. وينبغي علينا عندما نعمل هذا التحليل أن نضع في اعتبارنا باستمرار نصوص الكتاب المقدس التي أوردناها فيما سبق.

أولاً، ينبغي علينا أن نتحدث عن سقوط الخليقة. يقول القديس غريغوريوس السينائي أن الخليقة لم تصنع متغيرة وفسادة، ولكنها أخضعت بدون إرادتها للفساد بسقوط آدم^٢. ولكي يقدم القديس مكاريوس

³ - Gregory of Sinai, 137 texts, 11, Philok. 4, p. 214.

المصري هذه الحقيقة، استعمل تشبيهاً جميلاً. فهو يقول أنه عندما يسبى ملك ما فإن خدامه ووزراءه يتبعونه بالضرورة إلى السبي، هكذا أيضاً عندما سقط آدم الذي كان رب وملك كل الخليقة التي كانت تخدمه، تضمن سقوطه الخليقة التي كانت تخدمه وتساعدته أيضاً.

يصف القديس سمعان اللاهوتي الحديث بطريقة جميلة مأساة الخليقة بعد سقوط آدم وانحدارها إلى الفساد. فيكتب أنه بعد طرد آدم من الفردوس، لم ترد كل الخليقة أن تتطلع إلى الإنسان وتملكها الغضب ضده. فهي لم تكن تريد الخضوع له. فالشمس لم تُرد أن تسطع ولا القمر أن يرسل نوره، ولا النجوم أن تلمع، ولا الينابيع أن تفيض، ولا الأنهار أن تجري. لم يرد الهواء أن يعطي الإنسان تنفساً، وغضبت الوحوش وكل الحيوانات على الإنسان لأنه فقد المجد الذي كان له. وأرادت السماء أن تسقط على الإنسان، ولم تستطع الأرض أن تحتمله. وهنا تدخل الله بحبه ومحبه للبشر، واضعاً في ذهنه الإصلاح من خلال تدبير تجسد ابنه، فقيّد الخليقة بقدرته وكبح عنف المخلوقات ضد الإنسان، حتى يصبح الإنسان روحانياً، غير فاسد، وغير مائت، حتى تقدر الخليقة هي أيضاً أن تتحرر من الفساد وتتجدد معه وتصبح غير فاسدة وروحية^٤.

بما أن سقوط الخليقة حدث من خلال الإنسان، هكذا أيضاً تجديدها سيحدث من خلال الإنسان المتحد بالله. بالإضافة إلى ذلك، فإن الإنسان هو الرابطة بين العالم العقلاي وعالم الحواس. إن تفسير النصوص الكتابية والآبائية التي استشهدنا بها بعناية، يشير إلى حقيقة أن الخليقة أيضاً سوف تُستعاد من الفساد خلال قيامة الإنسان وميلاده الثاني. إننا نرى ذلك بوضوح في كل تقليد كنيسةنا. وسوف نقدم فيما يلي تعليم القديس سمعان اللاهوتي الحديث عن تجديد الخليقة.

علينا أن نرى ما نحن مزمعون أن نقوله من وجهة نظر أن كل الخليقة صنعت بواسطة الله "من مادة غير موجودة". لقد أحضرها الله إلى الوجود، وهذا يعني أنه لا يوجد سبب لتدمير الخليقة غير العاقلة وإهلاكها تماماً. لم يخلق الله أي شيء لكي يفنى فيما بعد، فلا يوجد سبب لكي يحدث ذلك. بالإضافة إلى ذلك فإن كل النصوص الآبائية التي أوردناها تتكلم عن "سماة جديدة وأرض جديدة"، وعن تحرر الخليقة من الفساد وتجديدها. لا يمكن أن تكون هذه التعبيرات مشيرة إلى تدميرها الكامل المطلق.

يوضح القديس سمعان اللاهوتي الحديث هذه النقطة فيقول أنه تماماً مثلما جبل الله الخليقة أولاً على غير فساد ثم الإنسان، هكذا ينبغي تجديد الخليقة أي تغييرها أولاً، ومعها سوف تتجدد أيضاً الأجساد المتحللة بحيث "يصبح الإنسان روحانياً وغير مائت ثانية، ويحيا من جديد في مكان غير فاسد وأبدي وروحي"^٥.

⁴ - Macarius of Egypt, Homily 11, 5, CWS p. 92.

⁵ - Ethical treatise 1, ch. 2, SC 122, p. 190.

⁶ - Ibid. ch. 3, p. 204.

إنه يتكلم هنا عن تجديد الأجساد، وعن تغيير وتجديد كل الخليقة. فهو يقول أيضاً أن الإنسان الروحي سوف يسكن في مكان روحي غير فاسد أبدي بعد قيامته والمجيء الثاني للمسيح. يظهر هذا ما قلناه من قبل، أن الله لم يخلق الخليقة لكي تفنى بعد ذلك.

يربط القديس سمعان تجديد الجسد بتجديد الخليقة. فتماماً كما سيتجدد الجسد بالقيامة، هكذا أيضاً السماء والأرض بكل ما فيها، أي كل الخليقة سوف تتجدد وتعتق من عبودية الفساد. وليس فقط أن كل الخليقة سوف تتجدد، ولكن "سوف تشترك هذه العناصر معنا في اللعنان الذي هو من فوق".⁷ فليس الإنسان وحسب ولكن كل الخليقة أيضاً، سوف تشترك في نور الله. يجب علينا أن نؤكد أن ذلك سوف يحدث وجودياً حيث أن الإنسان هو وحده الذي يشترك في قوى الملائكة. تشترك الخليقة في قوى الله التي تمنح الوجود والحياة. إنها حقيقة أن الخليقة أيضاً ستتغير وتحول.

إنه يستخدم تشبيهاً ناجحاً جداً فيقول أنه كما يضع الصانع الأداة النحاسية القديمة الصدئة في النار ثانية فتخرج نظيفة متجددة بسبب التخلص من الصدأ، هكذا سيكون الحال مع الخليقة أيضاً. فهي إذ تشوهت بسبب خطية الناس، فإن الخالق سوف يضعها في النار وبالتالي "سوف يعاد تشكيلها وتجميعها إلى عناصرها الرئيسية لتصبح لامعة وجديدة"، وسوف تبدو مختلفة تماماً عما هي عليه اليوم.⁸

يؤكد القديس سمعان اللاهوتي الحديث هذه النقطة. فهو يقول أنه عندما يجدد الله الإنسان ويجعله غير فاسد، وغير مائت، "سوف يحول كل هذه الخليقة معه أيضاً، وأقول أنه سيجعلها غير زمنية وغير مادية بالمرّة".⁹ سوف تصبح الخليقة غير مادية وأبدية. إنها سوف تتحول تماماً بالتوازي مع الإنسان، "أي معه".

هذا الأمر مهم، لأنني سمعت لاهوتياً يقول أن الخليقة سوف تتحول في الإنسان لأن الإنسان هو خلاصة كل الخليقة، أي أن كل الكون سوف يتجدد. ولكن مثل هذا الاستنتاج يصاد كلمات الكتاب المقدس عن أن الخليقة سوف تعتق من الفساد، ويصاد أقوال القديس سمعان الذي يتكلم عن تجديدها "مع الإنسان" وليس ببساطة "في الإنسان".

بالتأكيد، لا تدعم آراء القديس سمعان اللاهوتي الحديث مفهوم الملك الألفي لأن هذا بدوره يتكلم عن حالة أرضية. ولكن لا يبدو أن للقديس سمعان هذا المنظور، بل ينبغي علينا أن نقول أنه لا يشير إلى مكان مادي مدرك بالحواس، ولا إلى خليقة مادية مدركة بالحواس ولكن إلى خليقة روحية.

يؤكد القديس سمعان على أننا عندما نتكلم عن تجديد الخليقة، فإننا لا نعني أنها ستعود لحالتها في

⁷ - Ibid. p. 206.

⁸ - Ibid. ch. 4, p. 208.

⁹ - Ibid. p. 210.

الفردوس الأول قبل عصيان آدم. ففي ذلك الحين، كان آدم إنساناً حسيماً متغيراً وكان يحتاج للغذاء. ولكن عند قيامة جسد آدم سيكون جسده روحانياً طالما أنه كما يقول بولس الرسول "يزرع جسداً حيوانياً ويقام جسداً روحياً". ومثلما سيكون آدم روحانياً ولن يحتاج للطعام، هكذا أيضاً كل الخليقة ستتجدد بقوى الله "في الميلاد الثاني وتتحول إلى مكان إقامة غير مادي وروحي يكون فوق كل إدراك الحواس"، وهكذا لن تكون مادية وملموسة كما خلقها الله لتشبع احتياجات آدم. سوف تصبح الخليقة روحية وغير مادية بحيث يكون للناس "مكان للإقامة"، أولئك الذين سيقتنون أجساداً غير جسدانية وسيصبحون "فوق إدراك الحواس في إدراكهم الحسي" وسيكونون "فائقي الوصف في كيانات فوق الوصف".¹⁰

من الواضح أن الحديث هنا هو عن إقامة روحية في مكان خاص حيث سيسكن الروحاني. يشير القديس سمعان مراراً وتكراراً إلى مكان إقامة أو سكن لأن كل الخليقة ستصبح فردوساً وستتغير وتتجدد مع الإنسان.¹¹

يعطي أيضاً القديس سمعان في تعليمه العديد من الأمثلة لكي يجعل هذا المفهوم أكثر وضوحاً. بدون أن يكون ذلك مفهوماً بالمنطق البشري لأنه أعلى من كل ذهن، سوف يصبح كل شيء روحانياً وإلهياً، وسوف يتحد بالمدرک وسوف يصبح "فردوساً عقلياً آخر وأورشليم سماوية". لم يسكن أحد من قبل في مثل هذا المكان الجميل. وهو إذ يقدم العديد من الأمثلة يقول أن الشمس والقمر والنجوم ستلمع لمعاناً أكثر. وسيحدث نفس الشيء مع الأرض حيث سيلمع كل شيء ويعكس جمالاً ومحبة. إننا نستشهد بأقوال القديس سمعان اللاهوتي الحديث والتي يقول فيها: "سوف ترتدي الأرض في تجديدها جمالاً غير موصوف، ونوعاً من الخضرة غير الذابلة المزينة بزهور منيرة من نوع روحاني بجملته، وهناك يقيم الأبرار بحسب الكلمة المقدسة" (٢بطرس ٣: ١٣).¹² نتحدث هنا عن اتحاد يفوق الحواس بين الخليقة الأرضية والسماوية. يعبر القديس سمعان عن ذلك بشدة: "سوف تتحول الخليقة الأرضية المرئية والمحسوسة وتتحد بالعالم السماوي غير المرئي الذي هو فوق الحواس". وعندئذ، عندما تتحد كل الأشياء الأرضية بالسماوية بنعمة الله، "سوف يتلقى الأبرار أيضاً هذه الأرض المتجددة كميراث ينبغي على الودعاء الذين يطوبهم الرب أن يرثوه".¹³

يبدو من كل هذا التعليم عند القديس سمعان اللاهوتي الحديث أننا عندما نتحدث عن الحياة الأبدية وعن تجديد الخليقة فإننا نعني أن الإنسان سيتحول ويعيش في مكان روحاني. لن تختفي الخليقة ولكنها سوف تتحول وتتجدد وتتغير.

¹⁰ - Ibid. p. 212-214.

¹¹ - Ibid. p. 218.

¹² - Ibid. p. 218-219.

¹³ - Ibid. p. 220.

يعبر أيضاً القديس نيقوديموس الأثوسي عن نفس لاهوت القديس سمعان اللاهوتي الحديث متكلماً عن النعيم الأبدي الذي للأبرار. ومن المؤكد أنه عندما يشير إلى الناس فإنه يكون أكثر تحليلاً وبساطة ولكنه يقدم الحقيقة اللاهوتية التي أوردناها من قبل. إنه يكتب قائلاً: "إعلم أيها السامع أنه عند المجيء الثاني سوف يتجدد العالم وسيكون أكثر جمالاً وأكثر لمعاناً من الآن. سوف تتطهر العناصر من كل فساد، وستكون أكثر لمعاناً من النار، وبشكل ما لن تحرق لأن الحرارة ستمضي بكليتها إلى الجحيم، وسوف يتطهر الهواء من كل ظلام وضباب. سوف يسطع الماء كالمرآة والبلور. وبالمثل ستتنقى الأرض أيضاً من أي وسخ ومادة مؤذية. فكل الأشياء المؤذية التي تسبب اضطراباً ومرضاً مثل حرارة النار، وبرودة الماء، وظلام الهواء، وحرارة الصيف الحارقة، وكل تلوث وقذارة هذا العالم، كل هذه الأشياء سوف تتجمع معاً في قاع الهاوية من أجل الشقاء الأعظم الذي للخطاة الأرياء. وهكذا سوف تبقى العناصر النقية بحيث أن الأرض ستكون جميلة وغير مؤذية كفردوس آخر.

بطريقة مشابهة سوف تعطي السموات والشمس والقمر والنجوم نوراً باهراً، وسبعة أضعاف أعظم كما يقول أشعيا: إنه أراد أن يكون نور القمر كنور الشمس، ونور الشمس سبعة أضعاف كنور سبعة أيام. ومع ذلك سوف يكف دورانهم، لأنه حيث أن الشمس والقمر والكواكب تدور من أجل مصلحة الإنسان وولادته وموته فإنها ستكف عن هذه الأشياء بعد القيامة العامة. سوف تقف الشمس في الشرق والقمر في الغرب وباقي الكواكب في أماكنها، كما حُلقت من البداية، ولن تتغير الفصول، ولن يكون هناك شتاء أو صيف، أو ليل، ولكن سيكون هناك دواماً مستمراً أبدياً للزمن ببهجة لا تنتهي وفرح لا يُقارن. وكل هذه الأشياء ستكون بأمر الله من أجل مجد الأبرار الأعظم ونعيمهم بحيث يتلقون مكافأة أعمالهم الوفيرة"¹⁴.

يُختبر تجديد الخليقة المستقبلي منذ الآن. فكما يستطيع المرء أن يرى مجد الله بالفعل في الحياة الحاضرة، هكذا أيضاً يستطيع أن يصل بالفعل لإدراك التحول المستقبلي للخليقة. عندما يقتني المرء نوساً مستنيراً، فإنه لا يُستعبد للخليقة ولكنه يرى فيها العناصر الداخلية للكائنات ونعمة الله وقواه غير المخلوقة. فهو عندما يقتني نعمة الله في داخله بطريقة مدركة ومحسوسة، فعندئذ يكون عائشاً قيامته وتجديد الخليقة. فيبدو كل شيء جميلاً بالنسبة له. ينبغي علينا في ضوء ذلك أن نفحص الوصف الجميل للخليقة الذي يعطيه القديسون. حيث أن الإنسان هو مركز الخليقة، فإن النعمة غير المخلوقة تعبر من خلاله إلى الخليقة غير العاقلة أيضاً. وبالتالي تخضع أيضاً الحيوانات المتوحشة للقديسين كما أخبرنا في سيرة حياتهم. ولكن رفات القديسين هي المكان الذي تظهر فيه طريقة التغيير والتحويل المستقبلي لحياة الخليقة.

¹⁴ - Nicodemus the Hagiorite: Ethics of the Christians, Thessaloniki, 1974, p. 398 (GK).

بهذا المعنى نقول أن المسيح بتجسده جلب للأرض الخليقة الجديدة لأنه أعطانا بالفعل إمكانية الحصول على إدراك لتجديدها، ولكنه أعطانا أيضاً التوقع الجاد لتجديدها المستقبلي. **بالتالي ليس لدينا في الكنيسة مجرد إشارات إلى هذه الحياة، ولكن لدينا برهاناً عليها.**

* النص هو تنقيح أسرة التراث الأرثوذكسي للجزء الثاني من الفصل التاسع من كتاب "الحياة بعد الموت" للميتروبوليت ييروثيوس فلاخوس، ترجمة د. نيفين سعد، منشورات دلتا برس.